من رسائل القديس صفرونيوس

الشِّكوك

والإيمان الحي

إلى الأخوة الذين لهم "الإيمان المسلَّم مرةً إلى القديسين"،

صفرونيوس يهدي السلام في الرب الذي أحبنا.

١– التوبة من الأعمال الميتة، التي حذَّرنا منها الرسـول، لا تكون إلَّا بالإيمان الحي. أمَّا الذي مات إيمانه، فلا رجاء له.

٢– الإيمان ليس هو تصديقٌ فقط، وإنما الإيمان هو تصديقٌ ورجاء الحياة المبارك الذي أظهره الله في أوقاته، أي في تدبير تجسـد الابن الوحيد وقيامته. والذين ذاقوا قوة الموت واختبروا شـوكته وسـقطوا تحت طغيان الخطية، هؤلاء يطلبون بكل قلوبهم الحياة، ويؤمنون –بسبب خضوعهم لقوة الموت واستبداده– بالحياة الغالبة التي في المسيح، وبأن لهم الابن يسوع المسيح القيامة والخلاص من الموت.

٣– الإيمان هو إدراك الحياة. والذين يدركون أن الخطية تميت، يطلبون الحياة الباقية من الله. وهؤلاء، عندما يسعون إلى الحياة، تدركهم نعمة ربنا يسوع الفائقة التي قال عنها الرسـول إنها "أُظهرت في الأزمنة الأخيرة" داعيةً إيانا إلى أن ننكر الفجور. وإنكار الفجور لا يصدر إلَّا عن النفس التي سقطت تحت سلطان الموت، وأدركت أنها سوف تبيد بالخطية. ولذلك يقول الرسول إن التقوى تدعونا إلى حياة البر بسبب مجيء ابن الله في الجسد: "عظيم هو سر التقوى الله ظهر في الجسد". وربنا له المجد عندما جاء إلينا، فقد علَّمنا كيف نعيش الحياة التي تليق بنا كأولاد الله. لأن الابن تجسد لكي يعلِّمنا كيف

نكون أبناء الآب، وأعلن ذاته إلهاً ومن جوهر الآب. وبدون الإيمان به إلهاً متجسداً؛ نسقط تحت لعنة الموت، كما سقط أريوس المبتدع الذي قطع نفسه من شركة الحياة الأبدية، وصار فرزه من شركة الكنيسة ظاهراً للكل.

٤– الإيمان يقود المحبة، ولكن المحبة تقود الإيمان أيضاً. والذين يحبون الرب من كل قلوبهم لا يمكنهم أن يرفضوا مواعيده، وإنما مهما قال الله، فكل أقواله مقبولة؛ لأن المحبة تصدِّق كل شيء، وترجو نوال المواعيد بالصبر وبالثبات.

إن فَقَدَتْ المحبةُ الثباتَ، فقد تخلَّت عن الإيمان، وإن فَقَدَ الإيمانُ المحبةَ، فَقَدَ قوة ورجاء المواعيد. أريني إنساناً يحيا بالإيمان وحده بدون محبة، وأنا أُريك كيف ينمو الإيمان بالمحبة؟ لقد وصل الإيمان إلى أغوار أسرار الله دون أن يفحص عن كيف ولماذا، بسبب المحبة التي تزرع الفرح في القلب، وتعطي النفس ثقةً في تذوق أسرار الله، وترجو طلوع الثمر ونوال مواعيد الله.

٥– أمَّا الشكوك النابعة من انقسام القلب وعدم قدرة الفكر على التصديق، فهي آتيةٌ من الحياة القديمة التي تثق في شموخ الفكر، وكأن الإنسانَ –بالفكرِ– قادرٌ على أن يصل إلى الله.

الذي لا يصدِّق نعمة الله، فهو متشامخٌ. أما الذي يَشُكُّ، فهو عديم الخبرة في كلام البر، لم يتدرَّب على التمييز بين الحياة والموت. **والنفس التي تقتني التمييز بين الحياة والموت، لا تتأخر عن الإيمان بالمسيح، ولا ترفض النعمة؛** لأن الادراك الذي فيها يحثُّها من آنٍ لآخر على أن تؤمن، فتطلب الخلاص من الموت بثبات.

٦– شكوكُ المبتدئين تحتاج إلى فحصٍ؛ لأن بعضها من قلة المعرفة، وبعضها من نقص الاختبار. أمَّا أغلبها، فهو عندما يطبِّق الإنسانُ مقاييس الفكر المتشامخ، وتعظُّم المعيشة على أسرار الله.

٧– الفكر الذي ذاق النقاوة، يرى الشـــكوكَ نابعةً من المخاوف، ومن فكر الحياة القديمة، وبكل وضـــوح يعبُر في هدوء بلا معوقات. أمَّا الفكر الذي تدنَّس بالسقوط، فهو يقف عند الشكوك ويلاجج ويجادل فيها بقوة كأنه سوف يخسر الكثير إذا لم يناقشها، ويتوهم أن خسارته أكبر إذا لم يذُق الدنس.

٨– قوةُ الشَّكِ في انقسام الفكر، وقوةُ الانقسام في خدمة ربَّين وسيِّدَين: الله والمال. **ولم يعنِ الربُّ أن الدنانير هي المال، إنما الحياةُ الخاضعةُ للموت،** والتي تظن أنها قوية بما تملك وتتشامخ حتى على الخالق الصالح الذي أبدع كل شيء من العدم.

٩– قال النبي إن الله جعل أمامنا طريقين: واحداً للحياة وآخر للموت. واحدٌ من الله والآخر من الآلهة المزيَّفة، فلا يجب أن يتأخر أحدٌ في التمييز بين الله والبعل. وأن يذبح بكلمة الله كل أنبياء البعل، أي الشـــكوك المانعة من إدراك نعمة الله. لأن إيليا ذَبَحَهم بعد نزول النار من السماء. وهكذا الذي يطلب نار الروح القدس ويستنير بسكنى الثالوث، لا يقبل الشكوكَ، وإنما يقتلعها قبل أن تنمو وتصير شجرة موت.

١٠– الشـــكوكُ في ظاهرها تكتســـي بثوب المعرفة؛ لأنها تبدو أفكاراً صـــالحةً، وهي تدعو الانسـانَ دائماً إما إلى الاحتفاظ بحياته لنفسـه، أو الاحتفاظ بالمقتنيات؛ لأن ذلك يُكثِر الشِّجَار والمشاحنات والانقسامات، أينما يعيش حسب الجسد، أي أنه أسيرٌ للشَّكِ في جدوى ومنفعة الحياة الجديدة في المسيح.

مرارةُ الانقسـام ثمرةٌ لا تنمو إلا على شـجرةِ الشِّـكِ، ولذلك جاء الربُّ وصُـلِبَ على الصليب من أجل شّكِ الانسانِ في صلاح الله، وأَظهَرَ لنا بموته الحياةَ الجديدةَ الآتية منه، هبةً وعطيةً ليست مِنَّا، وإنما بالإيمان به.

١١– التكاسُـل في علاج الانقســامات ووضــع دواء ومرهم المحبة، هو علامةٌ أكيدةٌ على أننا لسـنا في الإيمان. أمَّا الذين يتأخرون في المصـالحة مع الأخوة، أو يهملون الذين أحزنوهم، فهؤلاء مثل سِـباعٍ كاسِـرةٍ لا رجاء لهم إلا بالموت عن الذات الذي يلد

الوداعة، "وحِلم المسيح وصبره"؛ **لأن حِلم المسيح ليس إلا بذل الذات وتواضعه وقبوله لأن يموت عنَّا. أمَّا صبره، فهو انتظاره في الهاوية ثلاثة أيام.**

١٢– البُغضةُ سُمٌّ قاتل، يُصنع من الشك، ويقتل كلَّ شيءٍ حيٍّ في الحياة؛ لأن البُغضةَ ليست سوى التشبُّه بالشياطين، الذين يقاتلون الناس لكي يمنعوهم عن ميراث ربنا يسوع المسيح. والبُغضةُ ثمرةُ الموت؛ لأن الذي يقع تحت سلطان الموت، لا يتعلم من موته سوى الخوف والاحجام عن بذل الذات، وكراهية الأخوة. وبدون الإيمان لا يمكن أن يطهِّر قلبه من البُغضة؛ لأن الإيمان يدعونا إلى أن نرث ملكوت ربنا يسوع المسيح الذي ليس لنا ولا نستحقه كمكافأة على بذل الذات، وإنما هبة الله في المسيح يسوع.

فالإيمان يستهين بالمشقات ويستهين بالموت نفسه، ليس بالاستهتار بالحياة، وإنما لأنه يرى عذوبة الحياة مع الله، فيرفض أن يتركها مهما كان الخطر، ولو بقطع الأعضاء كل ساعة.

١٣– الإيمان يقود إلى التوبة، ويصبح هو إشارة التوبة. والإيمان الذي لا يقود إلى التوبة، يمرض بأمراض الخطية ويموت. أمَّا الإيمان الذي يقود إلى التوبة، فهو الذي يُسرِع إلى التخلِّي عن الذات، ويطلب الحياة الجديدة. وقبل التخلي عن الذات، يكون الإيمانُ بذرةً غير نامية، أمَّا بالتخلي عن الذات، فإنه ينمو يوماً فيوماً ويدرك قوة مواعيد الله، وبالرجاء يؤول إلى شجرةٍ تثمر بالمحبة.

١٤– أمَّا الذين بالإيمان يطلبون الحياة الحسنة العبادة، فيسعَون وراء الفضائل ويرونها القوة الحقيقية ويُقبلُون عليها؛ لأن فيها بركة مواعيد الله وصورة الحياة الآتية.

أمَّا الرذائل القاتلة للنفس والتي تُهلك قوة الجسد، فبالإيمان وحده نتعرف عليها كصورة الحياة التي تفسَد بسبب الابتعاد عن الله. هذه تبتعد عنها النفس بقوة الإيمان، وترذلها بالالتصاق بالمسيح وبصليبه؛ "لأن العالم قد صُلِبَ بموت الرب"، فلا تقدر النفسُ أن تعود إلى سلوكها القديم متى تحققت أن سلوكها هو الموت والتغرُّب عن الله. أمَّا

بالإيمان، فهي تقبل أن تتغرَّب عن الجسد والعالم والمقتنيات وكل شيء آخر، وتحسب الكلَّ "نفايةً" لكي تربح الحياة الأبدية في المسيح يسوع ربنا.

١٥– إن كانت فينا بقيةٌ من الحياة القديمة، فهذه نراها في الفكر الذي قال عنه الرسول بولس إننا عندما كنا نحيا حسب الإنسان الفاسد بالشهوات، كُنا "أعداء لله بالفكر"، وحيث الفكر الشرير الذي يضل الإنسان ويبعده عن الله، ويرغِّب إليه الرذائل ويصوِّر الفضائلَ كجبلٍ ثقيل لا يقوى عليه، مع أننا بالإيمان قادرون على أن نحرِّك الجبال، سواء كانت خطايانا، أم ما يبدو مستحيلاً على النفس، وهو الحياة الدائمة في الله. فالفكرُ النابعُ من الحياة القديمة هو الذي يقودنا بعيداً عن الله؛ لأنه يحوِّل النِّيةَ الداخلية، ويخلقُ في المخيِّلةِ الصورَ الخيالية، ويهيئ لها أن تقع تحت سيطرة الأرواح الشريرة.

كان أحدُ الأخوة يقرأ الأناجيل الأربعة لكي يعثر على تناقضٍ في أقوال الرب، وكان كلما قرأ الأناجيل، حاربته الشكوك، فجاء يقول إنه يفضِّل الاكتفاء برسائل بولس، وبعد ذلك جاء ليقول إنه يفضِّل بعضها، وأخيراً كفَّ تماماً عن القراءة، وبدأ يفكر في أن يعود إلى سيرته الأولى. ولما جاء إلى الدير الذي كنت مقيماً فيه وعَرَضَ عليَّ فكره، قلت له إنك لا تستطيع أن تكون تلميذاً للرب وقاضياً في آنٍ واحد. إمَّا أن تقبل بشارة الخلاص، وإما أن ترفضها. والقبولُ ليس رضاءَ الفكر فقط، بل أن تخرج من الحياة القديمة وتسعى إلى الحياة الجديدة في المسيح. ولما أخذ في الجدال قلت له إنني مقيمٌ منذ تسعين سنة ولم أتعلم سوى طاعة الوصية، فكيف أجلس في مجلس قضاءٍ لكي أُحاكِم الآباء الرسل الذين سلَّمونا الإيمان؟ فخرج على الفور من الدير وذهب إلى حيث يشاء، رغم دموع الأخوة. ولما جلسنا في الكنيسة حرَّك روحُ الربِّ أحدَ الشيوخ وقال "إن الذي يترك الوصية الأولى الكاملة، وهي جحد الذات، لا تنفعه كتبُ الحكمة، ولا مشورة الشيوخ؛ لأن الذي لا يهديه فكره إلى الحق لا ينتفع مما يسمع من تعاليم". لذلك، ليكن لنا ضميرٌ من الإيمان يدلُّنا على الخلاص وعلى النجاة من ضلال الفكر العتيق.

١٦– لا يجب أن نفزع من الشكوك أو نرتعب منها؛ لأن الشيطان لا يسعى

إلا لكي يسيطر علينا الاضطرابُ والقلقُ، وبذلك نتحول من تأمُّل الأمور المقدسة إلى مقاتلة الأفكار العقيمة الميتة التي بلا فائدة، وبذلك نصبح مثل السائر في البرية وقد اختلطت عليه الطرق، فتقاطعت وتشابكت، فنسى اتجاهه وطريقه الذي كان يسلكه، وسار على غير هدىً. هكذا يكون الذين يقاتلون الشكوك بإطالة النظر فيها ومحاولة التغلب عليها بالفكر وحده. أمَّا الشكوك، فلا يقهرها إلا اتضاع الفكر وعدم الاتكال على الأهواء التي تدفعنا إلى التفكير غير المتزن، وإلى عدم رؤية الشكوك على حقيقتها.

١٧– الفكرُ الصالح ظاهرٌ جداً ولا يحتاج إلى تخمين، بل هو ظاهرٌ لأنه نورٌ من النور الكلي الصلاح، أي الله. أمَّا الفكر الشرير، فهو ظلمةٌ، يقود إلى البُغضة والافتراق والحسد والنميمة والكذب، وهذا لا يحتاج إلى إيضاح. أما الفكر الشرير الذي يبدو نوراً مضيئاً، فهو لا يغشُّ إلَّا عديمي الخبرة. هؤلاء لا يفهمون أن ما يرونه ليس صلاحاً، إنما هو ظلمة؛ لأن كل فكر يبعدنا عن الله ويخلق الانقسامات، ليس من الله.

١٨– أمَّا الحق الذي من الله، فهو لا يخلق الانقسامات، وإنما هو مثل الغربال الذي يفصل الحبوب عن القش، وهكذا لا يصطدم بالحق إلَّا مَن يريد أن يعيش لنفسه، وهذا موته ظاهرٌ. لأن الربَّ هو صخرةُ شكٍّ وحجرُ عثرةٍ للذين يصطدمون به فقط، أما الذين يقاومونه، فيسقط عليهم الحجر ويسحقهم. فهو لم يأتِ لكي يبدد ويُهلك، وإنما لكي يخلِّص ما قد هلك.

١٩– الفكر الصالح لا يُعيدنا إلى تصرفات وأهواء الحياة القديمة التي عشناها قبل أن نجدد ذواتنا ونرفض العالم. وكلُّ فكرٍ يبدو صالحاً، علينا أن نرى، لا بدايته فقط، وإنما نهايته أيضاً؛ لأن أي مخلوق لا يُعرَف فقط من رأسه، وإنما يُعرف أيضاً من قدميه، ومن طبيعة تكوينه، إن كان حيواناً أم إنساناً. هكذا كل الذين يراقبون مولد الأفكار ويتأملونها حتى نهايتها، لا يعثرون مطلقاً، وإنما يرون حفرةَ الموت وفم الهاوية، ويعبرون أمامه بالإيمان الذي فيهم، والذي "سَدَّ حتى أفواه الأسود".

٢٠– أما إذا صارعتنا الشكوكُ ودام الصراعُ، فاعلموا أن القلب في الداخل

ليس طاهراً ولا النية نقية. وأحياناً يكون الجهل الذي فينا هو مصدر طول قتال الشكوك؛ لأن العقل العديم الخبرة يظل يدور مثل الثور الذي في الساقية نهاراً كاملاً، ويتعب دون أن يبتعد عن مكانه مطلقاً؛ لأنه مقيَّدٌ بالحبال والأخشاب. هكذا العقل المثقل بالاهتمامات الباطلة، تدور أفكاره مثل ثورِ الساقية مربوطاً بالأهواء والشهوات لا يفارقها، ويتعب منها دون جدوى. لذلك، علينا أن نرحل من أرض الشكوك بالتأمل في الأمور السماوية، وإن تعذَّر علينا التأمل بسبب ضيق القلب، فلنرحل بالتسبيح أو بخدمة الأخوة، أو براحة النوم. وكل هذا، فليكن بإفراز، وحسب التدبير الذي نعيش به.

٢١– الشكوكُ مثل نبعِ مياهٍ مالحةٍ، تتحرك وتفيض في أوقات انعدام المطر؛ لأن المياه العذبة تفيض دائماً من الأماكن العالية، وتنحدر من على الجبال إلى الوديان. أما المياه المالحة، فهي كثيراً ما تنبع من أماكن حجرية ومالحة، وبالتالي تأخذ مذاق الينبوع. هكذا الشكوكُ، تحمل معها دائماً رائحة ومذاق "رئيس عالم الظلمة الشرير"، وتأتي أحياناً في شكل ملاك نور، ولكن كبرياء الملائكة الساقطين ظاهرٌ؛ لأن الفكر الشرير يدعونا إلى مصارعة الأخوة وقتالهم باللسان أو باليد أحياناً. كما أنه يدعونا إلى أن نلبس صورة الفاسد والطاغية، أو صورة المهلِك، وهو اسم الشيطان. ويكون طعم هذه الأفكار ظاهراً لمن كانت عنده حاسة التذوق سليمة. أما المستبيح، فيفقد التمييز، وعنده يصبح الملح مثل العسل، والصواب مثل الخطأ، ويصير مثل عيسو الذي باع بركة البكر بطعامٍ فانٍ، مع أن بركة البكر قادرة على أن تعطيه طعاماً وفيراً.

لنفحص أفكارنا في هدوءٍ وتمييز؛ حتى لا نخطئ دون إرادتنا، ونهلك بمشورة المقاتل المهلِك الشيطان.

٢٢– يصلح للمبتدئين أن يكون لهم كمال المعرفة بالتأمل في الأمور الصالحة والسماوية. فالذي يزرع بذرةً يعلم أنها تنمو إلى شجرةٍ عظيمة، هكذا المعرفة. وعلينا أن نتدرَّب ونتعلم من الشيوخ، ثمار كل بذرة على حدة، إن كانت المحبة أو خدمة الأخوة، حتى يكون لنا إدراكٌ للثمر الذي نرجوه، وبهذا ننجو من شراك العدو. فالذي يزرع حنطةً،

لا يتوقع أن يحصد غيرها، أمَّا الذي يزرع شوكاً، فهو يعرف شكل الشكوك. لأجل ذلك، علينا أن نتمسك بوصية الرسول: "ما يزرعه الإنسان، إياه يحصد".

لقد ظهر البِرُّ، وأعلن الربُّ الحقَ، وأكَّده بصليبه وموته وقيامته، فمَن يحيا لنفسه، يسقط سريعاً ولو كان عقله يسع كتب البيعة كلها. أمَّا مَن يحيا للرب، فهو الذي يعبرُ مثل سبَّاحٍ ماهرٍ، بِحارَ الشكوكِ، ويدخل بالطاعة للوصية، أرض الموعد الحسنة التي هي أورشليم السماوية، الكنيسة الجامعة.

٢٣– لندرس كيف سقط هراطقةٌ كانوا من الإكليروس، وكانوا يدرسون أقوال الله والأسفار الإلهية. هؤلاء فرزتهم الكنيسة الجامعة؛ لأنهم فقدوا ينبوع الحياة، أي الرب يسوع المسيح نفسه.

ولنبتعد عن الشكوك وسُمِّ الهرطقة، ونشرب من تعاليم الجامعة الوحيدة المقدسة الرسولية؛ لأنها غرست لنا العلامات التي تفصل بين تخوم الرب وتخوم الموت. أمَّا تخوم الرب، فهو قانون الإيمان الذي هو وصية الرسل، وما سلَّمه إلينا الآباء وقرارات المجامع المقدسة. والذين يعيشون بهذا الإيمان، ينالون رحمةً ومعونةً من الله، ويميِّزون بين الشكوك والهرطقات، والإيمان الرسولي.

٢٤– على هذا الأساس المتين، أي الاعتراف بالإيمان الأُرثوذكسي، تأسست الوحيدة الجامعة الرسولية، كنيسة الله، وكلُّ مَن يبني على غير هذا الأساس، يهلك ولو كانت فيه كل بحور العلم والحكمة.

صفرونيوس يسأل صلواتكم.